

جماليات المقهى عند نجيب محفوظ

مقهى الكرنك :

الوصف التشريحي لمقهى الكرنك لا يمكن أن نغفل دلالاته القوية والواضحة ..مقهى نظيف فى وسط البلد ، مرتاديه هم طلبة فى الجامعة لهم رأى فى السياسة والثقافة أو لنقل هم مجموعة طلاب جامعيون لهم ثقافة ورأى تجاه الواقع ، يهتمهم بالدرجة الأولى الوطن والمستقبل حتى ذلك النفر القليل من المشايخ أو كبار السن يشتركون معهم ولو بالإحساس ..ثم ما نلمسه أن الجميع فى ذلك المقهى يتوحدون .

• ماذا يعنى أن أهم المرتادين هم طلاب الجامعة المثقفين؟؟..إنها الطبقة والفئة المختارة ولنقل باللغة الماركسية انها طبقة البرجوازية الحاملة للثقافة والوعى ..لديها القدرة على تحليل الواقع وعينها دوما متجهة إلى المستقبل والى الأفضل ، أن الأمل يحدوها فى غد أفضل للوطن بأكمله .. ان رواد مقهى الكرنك من الطبقة المستتيرة والقادرة على قيادة الآخرين .. ولذلك وجدنا المقهى هنا يتسم بملامح لا تتواجد فى المقاهى الأخرى من حيث النظافة والنظام والإتقان، هناك هم واحد يجمع الجميع سواء الكبار أو الشباب أو حتى الهامشيين ..يشير نجيب أن تلك المقهى كثيرة المرايا وهى دلالة أن تلك الطبقة أقصد البرجوازية لديها الرؤية الواضحة لسير الأحداث ولديها الهم الوطنى ولذا نجدها تبذل كل جهدها لتنمية الوعى الجماهيرى ويقتطع الفئات الأقل قدرة على الرؤية والإدراك..

- أن أهمية مقهى الكرنك كمكان انه يمثل ما يمكن أن نطلق عليه (المكان القدرى) أو القدرية المحتمومة للمكان ..ففيه تحدث الأحداث وما عليه الا أن يستقبلها ، أن قدره أن يكون مستقبلا لأحداث جلييلة مرعبة ومحزنة بل وقاتلة ، أن مقهى الكرنك شاهد عدل على اضطراب الوطن وتخططاته وزلاته ..انه شاهد حى على أسوأ ما يفعله الوطن بأبنائه ..عندما يتنكر لهم ويسحقهم تحت أوهام من المقولات الجوفاء ..الكرنك مكان لمقهى قدرله أن يكون شاهد حى على مسيرة وطن وانكسار الأحلام والآمال داخله وأمثلة تلك الأماكن أنها تدخل التاريخ من أوسع أبوابه ..وتلك جمالية خاصة لهذا المكان الفريد الذى خلده نجيب محفوظ

...

- يقول نجيب محفوظ عن مقهى الكرنك (اهتديت إلى مقهى الكرنك مصادفةمن مجلسى أجلت البصر فأحاط بالمكان . كأنه حجرة كبيرة ليس إلا ولكنه أنيق رشيق ، موزق الجدران ، جديد الكراسى والموائد ، متعدد المرايا ، ملون المصابيح ، نظيف الأوانى ، ياله من مجلس ذى جاذبية لا تقاوم . - قرنفة صاحبة المقهى - تحرك نظرتها الشاملة الساقى والجرسون وعامل النظافة وترعى الرواد المعدودين - كأنهم لصغر المكان أسرة واحدة - بمودة وألفةالقهوة فاخرة والماء نقى عذب والفنجان والكوب آيتان فى النظافة) .(٤،٣)
- قدرية المكان كالكرنك أن يكون مستقبلا للأحداث ومتأثرا بها ..انه ترمومتر حساس لكل ما يحدث فى الواقع الخارجى ..وعندما يغيب رواده يضطرب المكان وعند الرجوع يزدهر المكان ويتألق ..يحزن بالأحداث ويفرح بالأحداث ، انه عاكس للحقائق ، انه مكان مثل المرأة ، عاكس لكل التغيرات والاضطرابات والاهتزازات ..لقد أراد نجيب محفوظ أن يوضح حقيقة المكان

عندما وصفه بأنه يحتوى العديد من المرايا ..وهو حقا مكان عاكس أو مكان
مرآة لكل ما يحدث ..

- وجرى الحديث بيننا تعليقا على الحدث :

- الاعتقال فعل مخيف حقا .

- وما يقال عما يقع للمعتقلين أفظع

-

-

- لم أدع أحدا من كبراء الماضى أو الحاضر إلا زرتة وسألته ، ولا جواب
عند أحد ولكنك تسمع كلاما غير متوقع مثل " من أدرانا ؟" أو " حذار من السؤال
والا ساءت العواقب " أو " لا ترحبى بالشباب فى مقهاك " . ماذا حصل للدنيا ؟!

ص ٢٠

إذا قدر للمكان أن يكون بمثابة القلب النابض والشاعر بكل الأحداث
والشاعر بكل الآمال والآلام والأحلام ...إذا حدث ذلك لمكان ما ..هنا يصبح
المكان كبيرا حتى وان صغر فى الحجم ..كبر المكان أو صغره يتحددان بحسب
مكانة المكان من الأحداث ..ماذا يهم من مكان شاسع إذا كان بعيدا ومنفصلا عن
أى أحداث تحدث ؟؟

ومقهى الكرنك صغير فى الحجم ربما ...ولكن كبير فى غاية الكبر لأنه
بمثابة القلب النابض الشاعر بكل ما يحدث فينا فيتأثر ويتألم ويهرم ويشيخ وتعتريه
كل العلل والأمراض تأثرا بكل ما يحدث فى خارجه ...

" وما ندرى ذات أصيل إلا والوجوه الغائبة المفتقدة تهل علينا بفرحة
مباغته .زينب دياب واسماعيل الشيخ وحلمى حمادة وبضعة نفر آخرين ، أما
البقية فلم نر لها أثرا بعد ذلك . هللنا مرحبين(٢١)

- أين كنتم يا جماعة ؟

- فأكثر من صوت أجاب : فى نزهة ...

وضجوا بالضحك ، وعاد المرح ولكن الوجوه تغيرت ، فالرؤوس الحليقة أضفت على السحن غرابة فضلا عن ذبول واضح فى النظر والحيوية .
وتساءل صوت - لعله زين العابدين - قائلاً:

- ولكن كيف حدث ما حدث ؟

- فصاح اسماعيل الشيخ: دعونا من هذه السيرة ...

وسمعت اسما يتردد ، لا أدرى كيف تردد ولا من كان أول ناطق به
خالد صفوان ..خالد صفوان .. ولكن من هو خالد صفوان ؟ محقق؟!..مدير
سجن؟!..أكثر من صوت يردد خالد صفوان وكنت أختلس من الوجوه
النظرات وأكاد ألمس المعاناة والذهول وراء الأفتنة . وممكن أن أقول أن
الحياة فى الكرنك استعادت روتينيتها اليومية ولكنها فى الواقع فقدت قدرا لا
يستهان به من صميم روحها . أسدل ستار كثيف على فترة الغياب المجهول
فمضت كسر مثير تحوم حوله الأسئلة وترتد خائبة . ورغم المرح والأحاديث
انتشر الحذر فى الجو مثل رائحة غريبة مجهولة المصدر . وتحملت كل نكته
بأكثر من معنى وكل اشارة بأكثر من مغزى وكل نظرة التبتت فيها البراءة
بالتوجس . وقالت لى قرنفلة :

- الأولاد عانوا كثيرا .

- فسألتها بلهفة : هل قال لك شيئا ؟

- انه لا يتكلم وفى ذلك ما يكفى

.....وظلت معلوماتى تركز على الخيال حتى اتيح لى بعد ذلك

بسنوات أن تفتح لى القلوب المغلقة فى ظروف جد مختلفة وتمدنى بالحقائق

المرعبة وتفسر لى ما غمض على فهمه من الأحداث فى ابان وقوعها
(٢٤،٢٢).

• أن أهم ما فى مقهى الكرنك أنها صورة حقيقية للوطن ، تصوير دقيق لمآسى الوطن وانكساره ، صورة صادقة لكافة التناقضات التى تموج داخله وصورة لتلك الحيرة الكبرى وعلامات الاستفهام الكبرى والتى تتضخم كل يوم مع تصاعد حدة التناقضات حتى يصل إلى الطامة الكبرى والإجابة الحاسمة لكل التناقضات ، إنها الهزيمة بكل أبعادها .. هذا هو مقهى الكرنك انه القلب الذى قدر له أن يتحمل ويعكس أزمة وطن وانكساره وهزيمته رغم ما تبدى فى الأفق من انجازات عظيمة ..

- (وللمرة الثانية اختفى الشبان .

وقع المقدر فجأة وبلا سابق إنذار كما حدث فى المرة الأولى . ولم يقع أحد منا فى حيرة التساؤل وعذاب الشك ولكن اجتاحتنا الانزعاج والذهول .

.....

وبعد مرور أيام جالستنى قرنفة ، طالعتنى بوجه كئيب ثم سألتنى باهتمام : خبرنى عن معنى ذلك ؟

قرأت خواطرها الخفية ولكننى تجاهلتها ، فقالت : توجد حولنا أسرار !
فتمتمت : ربما

.....

فتنهدت وقالت بامتعاض شديد :

- لم يعد فى الدنيا أمان ...

ورجع الصمت المشحون بالأسى وقعدت قرنفة على كرسى الادارة كتمثال فاقد الحياة . أجل كانت تلك الحوادث تقع كل يوم ولكن تأثيرها يختلف اذا وقعت قيمن يعدهم الإنسان أسرته . وشككنا فى كل شئ حتى الجدران

والموائد . وعجبت لحال وطنى . انه رغم انحرافه يتضخم ويتعظم ويتعلق ،
يملك القوة والنفوذ ، يصنع الأشياء من الإبرة حتى الصاروخ ، يبشر باتجاه
انسانى عظيم ، ولكن ما بال الإنسان فيه قد تضاعل وتهافت حتى صار فى
تفاهة بعوضة ، ما باله يمضى بلا حقوق ولا كرامة ولا حماية ، ما باله ينهكه
الجبن والنفاق والخواء)(٢٧،٣٠)

• إن من جماليات هذا العمل أنه يمثل ذاكرة وطن وذاكرة أمة لا يمكن
تجاهلها عندما تريد أن ترى حقائق الأشياء بشكل دقيق وأمين .. فى عصر
الستينيات من القرن الماضى ، هل يمكن أن نتجاهل الكرنك .. انها شاهد
عدل لحقيقة العصر .. وتلك هى عظمة وقيمة وجمال الفن . قدرته على
البقاء ليقف منتصبا أمام الجميع ليقول تلك هى الحقيقة ...

يقول نجيب محفوظ (ولدى اقبالى على المقهى ذات مساء لمحت وجه
قرنفلة مشرقا . دهشت حقا واجتاحنى فيض من الأمل فاندفعت نحو الداخل
، وسرعان ما وجدتني حيال الأصدقاء المحبوبين ، زينب واسماعيل وحلمى
واثنين أو ثلاثة آخرين . وتعانقنا بحرارة وضحكة قرنفلة تباركنا ، وتبادلنا
الأشواق متجنبين أين وكيف ولماذا ، ولكن تردد فى همس اسم خالد صفوان
الذى صار رمزا من رموز حياتنا لا تكمل إلا به

.....

ولكن الخسارة تبدت ملموسة أكثر من المرة الماضية . هزلوا كأنهم
خارجون من مجاعة ، لاحت بأعينهم نظرة حزينة وساخرة ، ورسب فى
زوايا أفواههم امتعاض راسخ . أن حرارة الحديث تذيب الرواسب فإذا فرغوا
منه وخلوا الى أفكارهم اختفت الأقنعة وتجلت الفتور والعزلة . حتى العلاقة
الحميمة بين زينب واسماعيل تعاني داء خفيا لا يكاد يرى عند النظرة العابرة

الأمر الذى أثار عواطفى وتساولاتى . يا ألطاف الله ، أن الآلة الجهنمية تطحن أول ما تطحن رأى والإرادة ، فماذا يعنى هذا ؟ (٣٤، ٣٥

.....

.....

وفى أواسط ربيع العام وقع الاختفاء الثالث !
لم يترك تلك المرة أى تساؤلات ولا عنفا فى ردود الأفعال . تبادلنا النظرات . هزنا رؤوسنا ، نطقنا بكلمات لا معنى لها : كالعادة .

- نفس النتائج

- لا جدوى من التفكير (٣٨)

.....

وكما سبق وأشرنا أن قشتم كمكان يمثل مرآة للأحداث وفيه نتعرف ونتعرف الشخصيات داخله على كل المعارف والمعلومات الخاصة بالوطن فى زمن معين .. وفيه أيضا تتطلق الأسئلة وعلامات التعجب والبحث عن المعنى وعن الهوية .. وفى المقهى تزداد الذات حيرة فى بحثها عن أى سمة هى تكون وأى هوية هى تكون وسط كل ما يحدث من أحداث لا معنى لها .. إنها أزمة الهوية أو المكان والبحث عن الهوية .

لذلك نقول انه (يمكن أن نتحدث عن وظائف أخرى للمكان ، مثل المعرفية cognitive function التى يزودنا المكان فيها بالهاديات أو المعانيات أو المعلومات المناسبة للسلوك ، كما يزودنا بوسائل لاستعادة ذكرياتنا الخاصة والعامة

وأيا يمكننا الحديث عن الوظيفة الأدائية أو الوسيلىة instrumental function للمكان ، التى تشير الى أننا نستخدم المكان بوصفه وسيلة للاتصال

المتكرر مع الجماعات المختلفة ، وأيضا للقيام بالنشاطات المرغوبة أو غير المرغوبة

ويرتبط بموضوع الهوية بشكل وثيق موضوع آخر يكاد يكون بمثابة الوجه الآخر للعملة ، ألا وهو موضوع أزمة الهوية . وهناك وجهات عدة من النظر في الفكر السيكولوجي المعاصر حول الهوية ، وأعطت اهتماما خاصا للتحويلات التي تحدث في هذه الهوية ، وهى التحويلات التي يشترك فيها المرء على نحو نشط ، وقد تعانى الذات أو تمر خلال ذلك بتحويلات مؤثرة أو دراماتيكية في حياتها ، مما يحدث انقطاعا مع الذات المبكرة..(١)

ولبتنا متلهفين حتى استيقظنا على أعنف مطرقة صكت رؤوسنا الثملة بنشوات العظمة . ولن أنسى ما زفره طه الغريب ، وهو أطعنا سنا ، فقد تجلى الأسى في عينيه وقال :

- ها أنا ذا على حافة القبر ، وسيجئ الأجل بعد أسبوع أو شهر ، فياربى لم لم تعجل به قبل أن يدركنى هذا اليوم الأسود !

وأحرق الحزن قلوب الشعب البرئ ، ولم يعد له من أمل فى الحياة إلا أن يرد الضربة ويسترد الأرض ولكنى أنصت هنا وهناك إلى قلوب تخفق بالشماتة والفرح ، وبدأت أدرك أن الصراع ليس صراعا وطنيا خالصا ، وأن الوطن ينزوى حتى فى أشد أحوال المحن فى خضم صراع آخر يحتدم حول المصالح والعقائد ، وجعلت أراقب هذه الفكرة فيما تلا ذلك من أيام وأعوام حتى وضحت جوانبها وتعرت جذورها ، فإذا بيوم ٥ يونية يستوى فى التاريخ هزيمة لقوم من العرب ونصر لقوم آخرين منهم أيضا ، وأنه جاء ليهتك الستر عن حقائق ضارية ، وليعلن حربا طويلة المدى بين العرب أنفسهم لا بينهم وبين إسرائيل فحسب.(٤٠)

نقول ... ان جمال مقهى الكرنك أن نجيب محفوظ شحنة بطاقة تأبى
الانتهاء ، طاقة قادرة على البقاء مهما مر الزمان ..إن المقهى يحمل الهم العام
وليس الخاص وهذا ما يدخله الى جماليات الابداع الحقيقى ..ان المكان لا
يحوى هما فرديا أو شخصيا ، بل أصبح بوتقة تحمل الهم العام يعبر عنه
أشخاص تجاوزوا ما هو ذاتى ليعبروا عن ما هو عام . وهذا هو الهمام فى
مقهى الكرنك ..إن الهم والأسى لا ينحصر ولا يتوقع على ما ذاتى وفردى
وإنما تعدى ذلك ليعبر عن ما هو عام انه الهم الوطنى

مقهى قشتمر :

رأينا المكان الذى يتواشج مع الوطن بأكمله ..كان الكرنك شاهد اثبات
لحركات الوطن وعثراته ..

أما اذا انتقلنا الى مقهى قشتمر ..فاننا نلمس فيه بعدا جديدا مختلفا عن
السابق ..هذا المقهى يمكن أن نقول عنه أن المكان يذوب فى داخل الأشخاص.
لقد انصهر المكان داخل الأفراد فأصبحوا هم والمكان شئ واحد ..ولا يمكن
تصور حياتهم بدون هذا المكان أو بدون قشتمر ..فهو الذى شهد حياتهم
ونضجهم ودخولهم لعهد الرجولة ثم المشيب ، رحلة عمر سجلها المكان ،
وتاريخ مكان شهده رواده ..صلة حميمة بين المكان والرواد لذا وجدنا بقدر
ما يحدث للأفراد يحدث نفس الأمر للمكان ...

يمكن لنا أن نقول أن مقهى قشتمر لعب دور وظيفى داخل رواده
ومرتاديه ..(وترتبط هذه الوظيفة ارتباطا كبيرا بالوظيفة الجغرافية للمكان .
فالمكان تكون له وظيفته الرمزية التى تفيد فى تأكيد وتعزيز البناء الأساسى
للشخصية لدى الفرد ، فالخبرات المتكررة فى مكان معين تساعد فى تطوير
احساس ما بالاستمرارية ، وشعور ما بالانتماء لمكان معين يجاوز الأفراد

وظروفهم الخاصة المباشرة .ولا يشترط أن تكون الأماكن التى تدعم احساس المرء العميق بالهوية هى الأماكن التى يتحرك هذا المرء فيها وينشط الآن ، بل يمكن أن تكون أماكن تنتمى الى الماضى أو تنتمى الى الحاضر وهو بعيد عنها الآن ، يحن اليها ويتمنى أن يفنى فيها ، فالذكريات والتخيلات وأحلام اليقظة ، وكذلك المعلومات الحقيقية المرتبطة بأماكن معينة ، تفيد فى تأكيد احساس المرء بذاته وفى تأكيد هويته ، وفى ترسيخ شعوره باستمرارية هذه الهوية . (٢)

ويصح لنا أن نقول أن المكان أقصد قشتمر تشخصن فى داخل الرواد أو أصبح أحدهم . هو بمثابة شخص يلزمهم دوما خلال رحلة العمر ... يقول نجيب محفوظ "وتتغير المصائر وتتفاوت الحظوظ ولكن تظل العباسية حيناً وقشتمر مقهانا ، وفى أركانه تسجلت أصواتنا مخلدة البسمات والدموع وخفقات لا حصر لها من قلب مصر . (٦٠٥)

...وفى عامنا الدراسى الأول - الثانوى - هدانا الهادى الى مقهى قشتمروطالعنا قشتمر بلونه الأخضر الزاهى ، وحجمه المحدود الذى لا يزيد عن حجم بهو بسرأى الزين باشا - كما قال صادق - ومراياه المثبتة فى الجدران ، وحديقته الصغيرة الموصولة به باب صغير مفتوح ، تتطلق بأركانها نخلات أربع ، ويقوم فى الوسط عدد من الموائد فى صورة مربع متساوى الأضلاعجلسنا حول المائدة نتلقى النظرات المستطلعة بوجوه ساخنة حتى جاءنا النادل وبدأت الممارسة الجديدة . هكذا عرفنا قشتمر فى أواخر ١٩٢٣ أو أوائل ١٩٢٤ ، ودون أن ندرى أنه سينعقد بيننا وبينه زواج لا انفصام فيه ، وأنه سيصغى بصير وتسامح الى حوارنا وأساطيرنا عمرا طويلا ، بل ما زال يصغى مستوصيا بصبره وتسامحه ... (٢٨)

..ويواصل ركن قشتمر سمره ما بين الأصالة والمعاصرة منبهرا بكل
جديد فى الفكر أو العلم متطلعا الى حكم صالح ينعم فيه بالاستقلال
والديمقراطية (٦١)

وصمد قشتمر وكأنه وطن ثان لنا . وتوفى صاحبه الكهل وحل محله
ابنه . وترددت فيه أصواتنا تحتفل بسقوط صدقى . وبشائر سياسة جديدة ،
وأنباء عن نجاح النازى بزعامة هتلر ، ومعاهدة ١٩٣٦.....(٦٩)

.....

وانهمرت على ركن قشتمر الأخبار المثيرة ، مصرع أحمد ماهر ،
حرب فلسطين ، مصرع النقراشى الحرب بين ابراهيم عبد الهادى وبين
الاخوان ، عودة الوفد ، حريق القاهرة . كتب علينا أن نعيش الهموم ونتجرع
الأحزان ونكظم الغضب أو نزرفه سمرا ونكاتا ونوادر هزلية . (٩٧)

...ونحن على حال كئيبة من المرارة والسخرية والتقرز ، هل علينا
يوم ٢٣ يوليو كالسحر المبين . شملتنا صحوه طاغية وتتابعات الحوادث
كالأحلام ، فرحل الملك والاقطاع والالقاب ، وبرز الفقراء والضائعون من
القاع فتربعوا على العرش ، وأصبح كل مستحيل ممكنا . ولم يعد لنا من
حديث فى ركننا العتيد بقشتمر الا حديث الحركة المباركة.(١٠٥)

.....وظل ركننا بقشتمر عامرا بوجودنا فلم ننقطع عنه الا فترة

قصيرة حينما قرر صاحب المقهى تجديده . (١١١)

ويمضى بنا الزمن ، تطوى كل يوم خطوة فى الحلقة السابعة . من
عجب أن صحتنا تنافس همومنا فى قوتها . وعصر الزعيم الثانى عامر أيضا
بالمفاجآت ، فهو عصر المنابر والنصر والسلام والانفتاح وعصر أكبر
درجات سجلها الفساد فى تماريه واستفحاله ، ولا نكاد نفطن الى ما طرأ علينا

من تغير الا أن نطلع لمناسبة على صورة قديمة فنقارن ذاهلين بين ما كنا وما نكون . ونزداد التصاقا ومودة ، ويمسى قشتمر عضوا فينا كما نمسى ركنا فيه ، وتبادل النظرات وتذكر الراحلين ونعرف أن يومنا سيجئ .(١٢٣)

.....

هلموا نمضى معا فى الحلقة الثامنة . ركن قشتمر باق ، ربنا يديمه ! المكان المستقر الوحيد مهما تثر العواصف من حولنا . ولا تحول جدرانها القديمة بيننا وبين الدنيا . وتمر السنون سراحا فلا تمنع قلوبنا من الخفقان أو ألسنتنا من الكلام ، حتى الحلم ننعم به ، فضلا عن ذكرياتنا المشتركة ومودتنا الأصيلة ، تمدنا بين الحين والحين بنادرة نردها أو ابتسامة نبتسمها . حفا يرعبنا الغلاء ، ويكدرنا الفساد ، ويوم قتل الزعيم فزعنا وتساءلنا عما يخبئه لنا الغد (١٤١،١٤٢)

.....

وقال لنا صادق صفوان يوما :

- أقترح أن نحتفل بمرور سبعين عاما على صداقتنا الوطيدة ...

وضممنا الاقتراح الى صميم قلوبنا . وقال حمادة :

- لنحتفل به فى خان الخليلي ..

- فقال طاهر عبيد : العوامة أفضل

- ولكن اسماعيل قدرى قال :

- بل فى قشتمر ، فنحن وصداقتنا وقشتمر كل لا يتجزأ

ووافقنا على ذلك دون تردد ، وأملى المكان على الحفل بساطة تتناسب

أعمارنا وصحتنا ، فاكتفينا بشراء تورتة ، وأعدنا الشاي ، وأخذ كل منا

قطعة، وفرقنا الباقي بين صاحب المقهى والجرسونات وماسحى الأحذية
....(١٤٦، ١٤٧)

نقول ..هناك أماكن تغزو وجدان الانسان فتسكن فى داخله حافرة
لنفسها مكانا أميناً من المستحيل أن تبرحه مهما طال الزمان ومهما كانت
الأحداث ..وتلك الأماكن غالبا ما تغزو الذات وهى غضة تشق طريقها فى
الحياة ، فيستهويها ذلك المكان أو ذاك وتظل الصحبة يوما بعد يوم حتى
يتلاصق الاثنان فيصبح المكان بمثابة الصاحب الأليف أو شخصا قدرته الأقدار
يلازمك حتى نهاية الرحلةبهذا المعنى يكون قشتمر.لقد لعب قشتمر فى
حياة الرفاق وأصدقاء العمر ما يمكن أن نطلق عليه الوظيفة التعبيرية للمكان
(فاختيار المرء وتعبيره ووصفه الأماكن وانتقاله عبرها ، يسمح له بالتعبير
عن القيم الفردية والجماعية الأساسية التى يؤمن بها هذا الفرد وهذه الجماعة ،
أو يتمنى حدوثها ، وهى يمكن أن تكون مجموعة من القيم الدينية والاخلاقية
أو مجموعة من القيم الاقتصادية والاجتماعية أو الجمالية ، أو غير ذلك .
فتصوير المشاهد التى تحدث فيها نشاطاتنا ، أو حديثنا عن هذه
المشاهد وهذه النشاطات ، يمكنه أن يعبر عما نحن فيه أو عليه الآن ، وعما
نطمح الى أن نكون عليه فى المستقبل ، وترتبط هذه الوظيفة بدرجة كبيرة
بالوظيفة الجغرافية والوظيفة الرمزية للمكان)(٣)

(وسواء كان المكان الذى يصوره الكاتب مكانا داخل الوطن أو
خارجه ، فاننا نلمح دائما ذلك الحس النقدى الرافض الذى لا يقنع بالوضع
الراهن ويدعو الى التمرد عليه وتغييره ، ويستنكر ما يحدث من فساد فى
التفكير والأخلاق والسلوك وينادى بقيم العدالة والحرية)(٤)

لذلك نقول أن من أهم الملامح الجمالية لقشتمر أنه مكان تمكن أن
يتماهى مع الأفراد ويلتصق بهم حتى أصبح واحدا منهم . شعر وأحس وتألم
وحزن مثلهم ...كان صغيرا بورقه الأخضر مثل بدايات خطواتهم للمراهقة
وكبر وشاخ وهرم معهم ...مكان يحكى قصة أصدقاء على مدى سبعين عاما
...وفى نفس الوقت يحكى قصة وطن خلال تلك المرحلة ...تتشابك الأحداث
وتذهب هنا وهناك ولكن يبقى المكان فى كل التحركات لصيقا بهم معينا لهم
وجامعا لهم أيضا ...انها مقهى قشتمر

الهوامش:

(١) د. شاکر عبد الحمید : الحلم والرمز والأسطورة (سبق

نکره) ص ٣٠٧، ٣٠٨

(٢) السابق ص ٣٠٣

(٣) السابق : ص ٢٠٦، ٢٠٧

(٤) السابق : ص ٣٠٤

obeikandi.com

خاتمة

ما يمكن أن نقوله فى الخاتمة ،أن المكان عند نجيب محفوظ هو البطل الحقيقى فى الأعمال التى تناولتها تلك الصفحات .. وهو يبدأ نقطة انطلاقه من الحارة المصرية ..

والحارة فى اللغة هى الشارع الصغير ، ولكنها عند نجيب محفوظ تأخذ أبعاد أعمق دلالة ، فهى قد ترمز الى العالم كله كما فى أولاد حارتنا ، وقد ترمز الى المجتمع المصرى كما فى زقاق المدق وقد تزمز الى المجتمع الانسانى ، فى توالى عصوره ، كما فى الحرافيش . والحارة فى الأصل جزء من مجموع المدينة ، يتخللها الطريق ويوجد بها المرافق العامة ..

ويصف أحمد أمين الحارة بأنها بقعة على يمين الشارع أو شماله ، ويسكنها قوم بينهم روابط والشارع يشمل حارات ودروب والحارة تشمل على عطفات . ومن الحارة ننقل الى الزقاق وهو:

الطريق الضيق ويجمع أزقه فى اماكن اخرى وبالتحديد فإن العلاقة بين ابناء الزقاق بديهية ، أو مفترضة . المدخل واحد ووحيد ، والنوافذ تقترب فتكاد تتلاصق وتطورات الحياة معلنة ، والخلافات الطارئة ما تلبث أن تغيب بتدخل الجيران ، أو بتجديد اللقاءات ، والتكافل يفرض نفسه ، فيبدو الجميع كأنهم افراد اسرة واحده ، يتفقون ويختلفون وربما علا بينهم الشجار ، لكن خصوصية العلاقة سمة ثابتة ومتواصلة .

والزقاق هو التعبير عن المدينة التقليدية ، تلك التى لم تتأثر بما وفد على المدنية الحديثة من عادات ومعتقدات وانماط سلوكية ، ولعل الزقاق . من ناحية اخرى هو همزة الوصل من حيث البعد الاجتماعى والاخلاقى – بين

الريف والمدنية – انه يشكل – على نحو ما ملاذا للقيم والموروثات التقليدية ،
بعكس الحياة المغايرة فى المدينة التى يختلف ايقاعها (١)

وفى زقاق المدق نلاحظ أن المكان هو البطل الحقيقى . ولأن اعتناء
الكاتب موجه الى الزقاق كبطل ، أصبحت الخلفية الاجتماعية هى المسيطرة
على الشكل العام وباقى الشخصيات . سواء كانت اساسية أو ثانوية ليست الا
مجرد جزئيات مكونة له ووحدته المكان النسبية فى الزقاق ساعدت الى حد كبير
فى ربط الاحداث بالشخصيات فى اتساق طبيعى خال من الافتعال . ولكن وحده
المكان لم تساعد كثيرا والاشتغال فى المعسكرات البريطانية لارضاء طموح
حميدة .. (٢)

ان المكان عند محفوظ يتمركز فى الحارة المدنية ومنها الى القهوة
وكلها تنتم أو تشير الى السمة الحداثية التى اتسم بها نجيب فى اعماله الروائية ..
اننا نزع أن نجيب محفوظ امكنه المزج بين الرؤية الاوربية فى السرد والوقائع
المصرية المتعبئة أو المتحققة .. انها حادثة بين امشاج مختلفة بين التخلف
الشرقى والتقدم الغربى ..

ومن هذا المزج تمكن محفوظ أن يخرج بحادثة خاصة .

والحادثة عند نجيب محفوظ لها طبيعة جديدة تتمثل فى : _

١ - قدرتها على تخليص السرديات العربية من جمودها وتقنياتها الثابتة
وتقديسها وعبادتها للتراث .

٢ - قدرتها على تحرير السرديات العربية من الصراعات الموهومة
والزائفة التى تغطى وتمحى تفاصيل الحياة اليومية المعاشة .

٣ - حادثة تمكنت أن تدفع البشر العاديين لمسرح الصراع بكل طبقاته
الاجتماعية وفنائه المختلفة . ولأن نجيب محفوظ ابن المدينة لذا نجده يتعلق

ويتشبت بالحادثة المكانية للمدينة وهى القائمة على العلم والتصنيع والمعرفة والثقافة ووسائلها المختلفة .

والحادثة السردية للمدينة تهتم بالبشر العاديين والحقيقيين ولذا وجدناه يرصد المدينة مع جوهر وجودها .. أو فى نقطة ارتكازها .. انها الحارة أو سرد الحارة ، انه استاذ الحارة بلا منافس . هذا ما وجدناه فى زقاق المدق ، قصر الشوق ، بين القصرين ، لسكريه ، بداية ونهاية ، خان الخليلى ... الخ .

الحارة عند نجيب هى بمثابة المعادل الرمزي للمجتمع ، والحارة بوصفها مكان محدد جغرافيا فإن نجيب يستخدم السرد لتوليد وتشكيل الحكايات العاكسة لكل انواع الصراعات على مختلف انواعها سواء اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية . ومن خلال ذلك السرد المحفوظي للحارة تمكن من: _

١- استطاع محفوظ أن يكشف عن كل القوى الفاعلة حتى الجماعات الهامشية والجماعات التى تقوم على اقتصاد الخدمات .

٢- استطاع أن يكشف كل تناقضات الطبقة المتوسطة فى السلوك اليومي أو فى سوق العمل .

٣- استطاع أن يقدم طموحاتها واشواقها الانسانية الانسانية فى تلك اللحظة وحتى الخروج من علاقات التخلف .

٤- استطاع محفوظ من خلال سرد الحارة أن يكشف عن ميله وانحيازه الى المشروع الليبرالى ...

- حادثة محفوظ وايمانه الليبرالى ودخوله للقهاوى : _

لماذا اختار محفوظ القهوة ؟؟ .. القهوة لها طبيعة خاصة حيث يتميز : _

- انها ذات حرية مفرطة ومفتوحة لكل الطبقات والتى لا خصوصية

لها.

- انها تتحرر من تقاليد المنزل والمسجد واماكن العمل .
- انها مكان لفائض الوقت والمال وما تطرحه من علاقات لذائذية وترفيهية.

- انها تلعب دورا هاما فى العمل السياسى وفى تطور فنون الغناء والسير الشعبية .. إن المقهى فى سرد محفوظ من اكثر الاماكن ليبرالية واقربها الى قلبه وقد آثرت على طريقة السرد اذ جعلته مفتوحا ومتعددا فى اختيار الاحداث والشخوص الفاعلة . وقد لا يحتاج البناء الى منطقية صارمة فى التطور وانما يحتاج الى مبررات انسانية ، يحكمها بعض العبث أو التهكم الاسود ، القائم على المفارقة الحياتية . أن مجاز التجاوز الذى تطرحه المقهى يقرب سرد محفوظ من المشهدية ، القائمة على العلاقات الاعتبارية والعفوية أو وليدة الخيال الذى يعتمد على حاسة الابصار لا السماع . وكل ذلك احتاج الى لغة دقيقة وواضحة ومتعددة فى الان نفسه ، حسب شخصية الراوى والابطال الذى يشكلون محور الصراع فى الحكاية (٣) .

ملاحظات :

أولا : مقهى نجيب محفوظ تجسيد لحقيقة وطبيعة المجتمع بأكمله ..
ولفهم ذلك نقول ..انظر لأنواع التسلية التى تنتشر فى المقهى ..تجدها الدومينو، الطاولة ، الكوتشينة ..وكل تلك الألعاب لا تتسم بأى نوع من التفكير أو التدبير أو الفن ..انها تقوم على فكرة الحظ والمصادفة ، كل من يلعب هو ينتظر ما يأتى به الزهر ..انه انتظار شئ لا يصنعه ولا يديره ولا ينسقه ..كل شئ مصادفة ،وحظ ولا دور للانسان على الاطلاق .

تلك الملاحظة هامة ،فطبيعة اللعب تحدد طبيعة الشخصية وامكاناتها ،وليس عجبا أن نجد سريان التواكل والاعتماد على الحظ والمقادير والقدر وكل

شئ مكتوب مسبقا .. مثل تلك المقولات المنتشرة فى العقل المصرى والمجتمع عامة دليل حى على اللا فعل واللاتدبير فى الحياة ، فإذا كان الشخص يلعب وهو ينتظر ما قد يأتى به الزهر فهو يعيش أيضا منتظرا لما تأتى به المقادير ، وهذا يعنى أن الانسان سلبى تماما ولا يستخدم ارادته وقدراته وامكانياته فى الحياة وفى اللعب أيضا ..

ثانيا : المقهى عند نجيب محفوظ تعتبر بمثابة المكان الثالث فإذا كان المنزل هو المكان الأول والعمل هو المكان الثانى فإن المقهى يعد بمثابة المكان الثالث والذى فيه تتخرج الذات وتحرر من الضغوط وقيود العمل والمنزل ... ويخيل اليى أننا لا نغالى اذا قلنا أن الانسان فى المقهى يكون أكثر تحررا من أى مكان يتواجد فيه .. ان ذات الفرد تتخرج أو تنطلق كما تحب وهى جالسة فى المقهى مع رفاق يحب صحبتهم ويحب سمرهم .. قد لا يكون ذلك بشكل مطلق تماما ولكنه هو السائد وهو الأكثر شيوعا والأكثر ملاحظة.

ثالثا : هناك أعمال أسمها على اسم المقهى مثل: قشتمر ، الكرنك .. هناك أعمال بها مقهى مثل : مقهى حنش ، مقهى كرشة ، مقهى النوبيين ، مقهى طرزان ، مقهى الأمراء ، مقهى الأوبرا ، مقهى أحمد عبده ، مقهى الفيشاوى

هناك أعمال تغيب عنها القهوة : القاهرة الجديدة ، الشحاذ ، عصر الحب ، أفراح القبة ، الباقي من الزمن ساعة ، الطريق ، بيت سيئ السمعة ، ثرثرة فوق النيل ، خمارة القط الأسود

رابعاً: أصناف المكان

- أ- المكان الفاضح لأهله : هو المكان الذى يعرى شخصياته ويكشف أدق تفاصيل حياتهم . فى هذا المكان نقول عنه هو مرآة عاكسة لأصحابه . وقد تمثل ذلك فى رواية زقاق المدق فهو الكاشف والمعرى لطبيعة كل قاطنيه .
- ب - المكان المفجر للأحداث :أى منه تبدأ الأحداث أو تنطلق منه واليه تعود وهكذا ، وهذا واضح مثلاً فى قهوة المعلم طرزان فى اللص والكلاب .
- ج - المكان بين الطرد والجذب ،...أغلب المقاهى أماكن جاذبية لا طاردة .

- د - المكان والاحساس الحميمى :تتضح جماليات المقهى فى خان الخليلى فى قدرتها أن تلقى الضوء على أكثر من مجال جمالياته من حيث المكان ..حيث موقعها فى خان الخليلى قرب مسجد سيدنا الحسين ،أى قربها من الطقوس ومراسيم الدين.

الهوامش

(١) انظر محمد جبريل : مصر المكان . الهيئة العامة لتصور الثقافة . فبراير

١٩٩٨ ص ٢١٩ .

(٢) نبيل راغب : قضية الشكل الفني عند نجيب محفوظ الهيئة المصرية العامة

١٩٨٨ ، ص ١٠٩ ، ١١١ .

(٣) انظر : فتحي عبد الله : سرد محفوظ افندى فى ثقافة العرب (مقال) فى

الثقافة الجديدة. عدد خاص عن نجيب محفوظ ٢٠٠٦ ص ١٧٠ .